الفصل الثانى

أبدية العـــالم

تمهيد

تناولنا فى الفصل السابق خلق العالم من منظور دينى يهودى عند فيلون السكندرى، ذلك الخلق الذى جاء متدرجا من العالم المعقول إلى عالم الشواهد، أو بعبارة أخرى من العالم الواحدى المثالى إلى عالم التغير[1]وإن كان هذا هكذا، فهل يعنى أن العالم يفسد أو انه زائل بلا رجعه؟ أم انه سائر فى الأبدية أو نحوها؟

والتساؤل السابق يقودنا ونحن نناقش مفهوم الأبدية عند فيلون إلى مجموعة من الإشكاليات التى يمكن أن نضعها على النحو الأتى، أولًا: هل الوازع الذى دفع فيلون لمناقشة مفهوم الأبدية دافعا دينيا أم انه دافعا فلسفيا محضًا أراد به أن يختلف عن الفلسفة اليونانية من ناحية، وفلسفة مدرسة الإسكندرية من ناحية أخرى؟ ثانيًا: هل يمكن أن نتطرق لمناقشة مفهوم الأبدية دون أن نحدد مفهومًا للعالم والفساد أو بلغه أرسطية للكون والفساد؟ أم أن الأمر على خلاف ذلك؟ ثالثًا: هل اختلف فيلون عن سابقيه؟ أم انه سار على نفس الدرب؟ رابعًا: إذا كان هناك عللا لفساد العالم فهل هى بحق قادرة على إفساده؟ أم أنها علل واهية لا تمثل قيمه نحو هدم المفهوم؟ خامسًا: ما العلاقة بين الزمن كملحق من ملحقات العالم بمفهوم الأبدية؟ سادسًا وأخيرًا: هل كشف مفهوم الاحتراق الرواقى عن الأبدية الفيلونية؟ أم

زاده غموضا والتباسا؟، وبناء على هذه الإشكاليات قسمنا هذا الفصل إلى ستة عناصر وهى:

أولًا ـ أهمية أبدية العالم.

ثانيًا ـ معنى العالم والفساد.

ثالثًا ـ نقد فيلون للسابقين.

رابعًا ـ علل فساد العالم.

خامسًا ـ الأبدية بين الزمن وعوامل الإفساد.

سادسًا ـ نقد مبدأ النار فى الأبدية.

أولًا: أهمية أبدية العالم

إن حديث فيلون عن أبدية العالم لا ينفك عن فكره الدينى، لأنه يدور حول مفهومه نحو العالم الذى يرتد بالطبع إلى الرب خالقه، وإن كنا سنتعرض له عند فيلون فإن تطرقنا له ليس من خلال مفهوم فلسفى بحت، إنما لإظهار فكرة دينية بلورها فى كتابه أبدية العالم Eternity of the world [1] ولا نعنى

(1) كتاب أبدية العالم من بين الأبحاث التى لا يعتريها الشك وذكر فى مجموعة إيسيبوس Eusebius، وذلك بدليلين أولهما دليل ظاهر وهو أن المفكرين يضعونه فى قائمة أعمال فيلون، وثانيهما ةهو دليل يتعلق بأسلوب ولغة الكتاب الذى حاول أن يحلله كومنت Cumont، الشك فى هذا الكتاب بكل تأكيد جاء مما كتبه برينز Bernays إلا أن ثقتنا بموثوقية هذا الكتاب لا تقل عن مدى نسبة كتاب «كل إنسان خير حر»Quod on ins Probus وكتاب «العناية» Providance فليس هناك سببا من قريب أو بعيد يرى رفض هذه النسبة إلى فيلون، الرفض الحقيقى الذى جاء به برينز هو أن فيلون فى صفحة 45 خرج عن الموروث اليهودى حين رأى العالم مثل اللهcosmos as God وحقا يقول برؤيتين فهو يقول بنجوم الآلهة، أو الموجودات الإلهية لكن الاهتمام الحقيقى بذلك أراد به أن يؤكد سيادة الآلهة، فمن غير المعقول أن ننسب الأجرام

بذلك أن الفكرة جاءت مكتملة فى هذا البحث عنده فحسب، وإنما هى فكرة دينية مرتبطة بمعظم قضاياه عن الدين فهى مرتبطة بخلق العالم من ناحية، وبالألوهية من ناحية أخرى، يرى فيلون أن أبدية العالم لها أهمية كبيرة واضعًا لنفسه منهجية يدفع بها أراء الفلاسفة ويدلل بها على خطئهم وعدم فلسفتها، أو أن أراءهم خيالات مرفوضة، لكنه لم يتطرق إلى كل الاختلافات التى عند معارضيه وقد بدأ مناقشة القضية بعرض أربعة مواقف تتعرض للمشكلة إلى أن ينتهى إلى مشروعه الأكبر وهو نقض الرواقية كمذهب مادى، ولم يكن هذا المشروع عفويا من جانب فيلون إنما هو رد فعل طبيعى من مفكر دينى، خاصة إذا علمنا أن الرواقية كانت رد فعل للأفلاطونية، حيث أنكرت المثل الأفلاطونية، ورأت أن الشئ لا يكون حقيقيا ما لم يكن جسمانيًا فكل ما له جسم من الأجسام وما ليس له جسم فلا وجود له، ولم تقف عند تجسيد العالم، فقد ذهبت إلى أن الله جسم، ولو كان الله لا جسميا فكيف يؤثر فى الأجسام التى يتألف منها العالم[1].

وإن كانت الرواقية تنظر هكذا إلى الله فلا بد وأن يكون المنطلق فى إثبات أبدية العالم عند فيلون منطلقا لاهوتيا جاء من تبنيه الاعتقاد بأن العالم مخلوق وغير قابل للفساد ويعبر عن ذلك فى عبارة مؤداها «خلق الرب

السماوية التى بلا عدد إلى العالم ذاته، حيث إذا أدركت هذه النجوم فى علاقتها بالرب كأحادية فهذا بالتأكيد يعرض مفهوم الواحدية Monotheism للخطر أن ما ورد فى هذه الصفحة هو عبارة جزئية وردت كإجابة عن تساؤل، وفيلون فى أعماله الأخرى يتفق على هذه القضية التى يتعرض لها فى هذا الكتاب وهى أن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساداً ولو تابع القارئ ما بعد هذه الصفحة سيرى ألوهية العالم حين يذكر أن العالم غير مخلوق وأزلى: انظر Colson:introduction of Eaternity de mundi, vol 9, op, cit, pp172-74

(1) د/ عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة 1971 ص 153.

العالم من ذاته لا من عالم أخر، فهناك ألاف يتسألون بشكل لا يقبل الجدل ما الذى يدفع الله لإفساد العالم؟ ولكى يكفوا عن أن العالم مصنوع أو بنى من عالم أخر فإن الأمر يتعلق، أولا: بطبيعة الرب التى دائما ما تريد أن تغير من الفوضى إلى النظام وليس من النظام إلى الفوضى، ثانيا: أن الرب سوف لا يسمح لذاته أن يغير عقله ومثل هذا التغير انعكاس لتغير مزاج النفس لا لذاته، ولا يمكن أن يسمح لنفسه أن تغير عقله، ومن الأجدر ألا يخلق عالمًا على الإطلاق، أو أن يحكم على عمله ليكون ملائما لذاته ـ يكون خلقه لذاته ـ فيبتهج لم أتم خلقه، ولو أن الرب خلق من عالم أخر ليحل محل اللاوجود فهذا العمل يعد بناء متعال، وكل هذه الافتراضات غير مرضية، لأنه لو كان سيئا فإن خالقه سيكون مثله، ولكن أعمال الرب شكلت بمهارة فائقة وليست عرضة للنقض أو الإدانة أو التصحيح، كما يقول:

«لا تفتقد المرأة الإحساس بالخير إلا عندما تختار الشر وتترك الخير Not even a woman so far lacks good sense as when the betters there to choose the worse».

وهذا يتناسب مع طبيعة الرب لأنه لا يعطى شكل لما لا شكل له ولا يستبدل الأشياء الجميلة بالأشياء القبيحة، فالرب لا يساوى ذاته إلا بذاته، ولا يسمح لذاته أن تخلق السيئ وتمتد إلى عمل الخير[1].

يعنى ذلك صراحة أن مسألة أبدية العالم هى مسالة لا تتعلق بالمنظور الفلسفى فحسب إنما تتعلق بمسألة طبيعة الله،ولما كان هذا هكذا، فلابد أن نضع أمامنا مفهوما محددا للعالم من خلال ما استوحاه فيلون من الشريعة اليهودية كما يدلل الطرح السابق عن أهمية أبدية العالم التى شكلت مفهوم الفكر الدينى عند فيلون السكندرى.

(1) Philo: Eternity of the world, ch 8, 41, pp 211 - 12.

ثانيًا: معنى العالم والفساد

حدد فيلون ثلاثة معان للعالم، الأول: وهو أن كلمة العالم cosmos or world تدل على كل نظام العالم مشتملًا الأرض والكواكب والحيوانات، والثانى: هو معنى يخص انكساجوراس Anaxagoras حين كان يحدق عينيه فى السماء فسأله شخص لماذا تعذب نفسك وتقضى الليل كله تحت السماء المفتوحة (الطل) فأجابه: بأنه يريد أن يجعلها ـ السماء ـ تتأمل العالم، والثالث: هو معنى يخص الرواقية التى تعنى بالعالم شىء موجود باستمرار وفى حالة احتراق كلى أو جوهر مقياس لحركاته[1].

وهذه التعريفات لا تعد تعريفات لكلمة العالم بالمعنى المفهوم للتعريفات الشيئية، حيث إن هذه التعريفات تركز على الجنس بنوعيه، بالإضافة إلى الصفات الجوهرية التى تميز النوع عن الأنواع الأخرى، إن ما أراده فيلون فى تحديده معان للعالم أن يحجم من المشكلة محل الدراسة ـ أبدية العالم.

واعتقد أن فيلون هنا جاء بمعنيين مناقضين لبعضهما البعض حيث إن المعنى الذى جاء به أنكساجورس جاء موافقا أو خادما للموضوع الذى سيناقشه، حيث إن انكساجوراس رأى أى جسم مادى فى الطبيعة جزء إلى أجزاء لا متناهية يظل محتفظا بنفس مادته، فالشعرة مثلا إذا قسمت جزأين يظلان من الشعر أيضا وإذا استمرت القسمة إلى مالا نهاية فان جميع الأجزاء تظل دائما من الشعر، ومعنى هذا إننا لن نصل إلى نقطة معينة تنقسم الشعرة فيها إلى أجزاء من الماء والهواء والتراب والنار كما قال ابنادوقليس وهذا معنى قوله فى فقرة (10) كيف ينشأ الشعر مما ليس شعرًا أو اللحم مما ليس لحما[2].

---

(1) Ibid: ch 1, 2 p 185.

(2) د/ أحمد فؤاد الأهوانى، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، ص 194.

يعنى ذلك أن أنكساجوراس سار على منهج يقول «ليس فى الطبيعة توالدا ما لم يكن موجودا من قبل ولا فناء لما هو كائن»[1] وهو النهج الذى رآه سابقه أنبادوقليس حينما رأى ليس هناك خلق physis لأى موجود من الموجودات الفاسدة كما لا يوجد لها نهاية بالموت، بل هو مجرد امتزاج لهذه الجذور الأربعة ـ الماء والهواء والتراب والنار[2]، وإن كان ذلك كذلك، فإن مذهب أنكساجوراس فى الخلق يوضح لنا سر عرض فيلون لرأيه فى تعريف العالم.

أما المعنى الثانى الذى رأته الرواقية لتحديد مفهوم العالم هنا فهو أن العالم شىء موجود ومستمر وفى حالة احتراق كلى ـ هو المعنى الذى يحاول أن يفنده فى ثنايا عرضه لمشكلة أبدية العالم، وهذا التعريف على حد تعبير ديوجين لارتوس تعبير يتوافق مع تعريف الزمان الرواقى[3].

وسنتعرض للحجج الفيلونية التى عارض بها الرأى الرواقى المادى على التفصيل، وذلك ليس عرضا أو تأصيلا للمذهب الرواقى ولكن لإيضاح مذهب فيلون فى أبدية العالم.

أما المعنى الثالث الذى يرى أن العالم يدل على نظام السماء مشتملا الأرض والكواكب والحيوانات هو التعريف الذى تبناه فيلون وسيقتصر الحديث عليه، حيث يقول فى عبارة مؤداها سوف أركز فى مناقشتى على المعنى الذى يرى أن العالم هو السماء والأرض والحياة فى ذاتها،أى من العالم الفانى إلى العالم الذى ينتقل إلى الوجود،أعنى،انتقال من وجود

(1) نفس المرجع ص 169.

(2) د/ أميرة حلمى مطر، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ 1968، ص 103.

(3) Diagene larece, Live of eminent philosophers, Translated by P, D Yunck Harvard University Press, Cambridge, 1972, vii, 66 p 114.

محتمل إلى وجود ممكن من لا شىء، لذا فإن أى شىء لا ينتهى أو يفسد إلى لا وجود no thing is destroyed into non existence[1].

إذن نلاحظ أن المعانى الثلاثة التى عرض لها فيلون جاء أولها معبرا عن مذهبه، والثانى جاء مثاليا حين جعل السماء تتأمل العالم، والثالث جاء ماديا بحتا، وابتغى فيلون من التعريفات الثلاثة سبيلا،أعنى،تعريفا وسطا ما بين المادية وبين المثالية، وبجانب ما استقر إليه فيلون من تعريف للعالم فى النص السابق فان قراءة النص تضرب من العمق فى المذهب الذى يعتنقه فيلون فى أبدية العالم، وهو أن العالم بدأ من لاشىء إلى وجود ممكن، وكأنه يقول أن العالم خلق من عدم إلى وجود مدرك، وقد عرضنا فى الفصل السابق لمفهوم الخلق من العدم عند فيلون، ولتقفى هذا المفهوم عنده وضع فيلون نقدًا لاذعًا لأراء السابقين، لكى يدلل على فكره الدينى فى أبدية العالم قام بعمل دراسة تاريخية للفلسفة ولكن من ناحية فكرية،لأنه أحيانا يذكر اسم الفيلسوف وأحيانا يتغاضى عنه مقسما الآراء التى ستعرض إلى أربعة.

ثالثًا: نقد فيلون للسابقين

بادئ ذى بدء فإن فيلون بدأ نقده للسابقين عليه بأبيات من نصوص تراجيدية ترجع إلى أنباذوقليس ويرددها وكأنه لاهوتى معاصر يردد بعض آيات (ترانيم) من الكتاب المقدس كى يبدأ دفاعه أو مناقشته وهى عادة موجودة عند اللاهوتيين عندما يبدأون حوارهم فهو يقول:

لاشىء يأتى من لاشىء

شىء لم يسمع أو يرى ليكون

(1) Philo: Eternity ، ch11، 5، 189،

مايو جد لا يفنى كلية (بمعنى الكلمة للفناء)[1]

ويستند أيضا إلى القصيدة الآتية:

ما يولد لا يمكن أن يموت

ما يحدث أن تفنى أجزاءه من قريب أو بعيد

ويأخذ شكلا أخر[2]

الأبيات الأولى ينفى فيها عدم الخلق من لا شىء حيث لا يأتى شىء من لا شىء فكيف يكون اللاوجود وجودا، أعنى، أن العالم مخلوق من لا شىء، وهذا يعبر عن الشق الأول من مذهبه وهو أن العالم مخلوق، أما الأبيات الأخرى وهى كل ما يأتى إلى الوجود لا يمكن أن يفسد أو أن يموت، ربما قد يفنى جزء منه أو يأخذ شكلا أخر غير طبيعته، وهذا يفسر الشق الأخر من مذهبه، أعنى، أن العالم غير قابل للفساد.

ثم يضع فيلون بعد ذلك ثلاثة أراء تعرض لإشكالية أبدية العالم، الأول: منها يرى أن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساد، والثانى: يرى أن العالم مخلوق وقابل للفساد والثالث: بنى رأيه من الرأيين السالفين فالعالم عنده مخلوق وغير قابل للفساد.

فالرأى الأول ينقد فيه الرواقيين وأرسطو، فالرواقيون اعتقدوا أن هناك

(1) هذه الآراء التى ذكرها فيلون ترجع برمتها إلى أنبادوقليس وهو وهو ينقلها دون أن يشير إليه، فقد ذكر أنبادوقليس فى الفقرة 11، 12 قوله «ما أحمقهم، وما أقصر بصرهم، إذ يظنون أن مالم يوجد من قبل يظهر إلى الوجود، وأن الموجود يفنى تماما (فقره 11)، وقوله أيضا» ولا يمكن بأى حال أن يظهر شىء إلى الوجود مما ليس بموجود، ولا أن يفسد ما هو موجود، فهذا أمر مستحيل، ولا يمكن سماعه، لأنه موجود دائما على أى وجه نتصوره (فقره 12) انظر د/ أحمد فؤاد الأهوانى: المرجع السابق، ص 166.

(2) Philo: Eternity, ch 2, 5, p 189.

عالم واحد فقط، علة وجوده الإله وليس علة فساده، وذلك نتيجة فعل النار التى تحل كل فى ذاته إلى عالم جديد مطابق لبنائه الهندسى الأول[1].

وهذا الرأى من جانب الرواقية فهو رأى فيلون يحمل معنيين: الأول أن العالم أزلى، والأخر أنه فانى، فقد ينظر إليه العالم ـ أزلى لأنه موضوع للاحتراق الكلى الذى لا يكف عن إعادة البعث ـ انه لا يفنى ـ وقد ينظر إليه انه فان لأنه لا يمكن إعادة بناءه من جديد.

أما أرسطو القائل بأن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساد فقد وصفه بأنه ورع وتقى وقد شجب الإلحاد من جانب القائلين عكس رأيه، لدرجة أن أرسطو رأى أنه فى الماضى كان يخاف أن ينهار منزله من الرياح العاتية أو من إهماله الشخصى فيه، ولكنه ألان يخاف من هؤلاء المنظرين الذين يقولون أن العالم سيفسد[2].

ورغم هذا النقد الايجابى لأرسطو إلا أن فيلون قد أرجع هذا المذهب إلى الفيثاغورثية، لأنه قرأه فى كتاب فيثاغورث المعنون بطبيعة العالم ocellus

(1) ترى الرواقية أن العالم نشأ من النار الأولى فحول الله النار ماء، ولم تكن أجزاء الماء متجانسة الصفات، فرسب ما ثقل منها، ومن ذلك تكونت الأرض، وتبخر ما خفف منها فكان هواء، فخفف الهواء ورق حتى استحال أثيرا ونارا سماويه، وبعد ذلك امتزجت العناصر الأربعة (النار والهواء والأرض والماء)، ـ إن شئت ـ فقل النار عقل جرثومى أو «لوغوس سبرماتيتوس» يحتوى على جذور الأشياء، أعنى، هو أصل لمادة الأشياء وتصورها، أصل لنشوئها وتطورها، انظر د/ عثمان أمين، المرجع السابق ص 162 معظم الرواقيين ما عدا «بنا تيوس» يعتقدون بالرجعة الأبدية، أو العود الأبدى، أعنى، إن العالم لا يفنى بعد الاحتراق، إذ تكون الغلبة للأثير على العناصر الأخرى التى تخضع للناموس الإلهى، فينشأ بعد ذلك عالم جديد، ولكنه شبيه لسابقه من جميع الوجوه، فهو بمثابة البعث للعالم الأول، نفس المرجع ص 162 وانظر أيضا د/ أميرة حلمى مطر المرجع السابق ص 405.

(2) Ibid chiv, b, p 193.

lucanain حيث إن فيثاغورث لم يقر بما سبق فقط إنما يؤكد على أن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساد، ولا ندهش من فيلون هنا حينما يرجح رأى أرسطو إلى الفيثاغورثية لأن الفيثاغورية عقيدة دينيه وليست مجرد فلسفه لتفسير الطبيعة بجانب أن فيثاغورث يميل إلى الاعتقاد بالخلود الأبدى للنفس، فالفلسفة التى قدمها هى مجرد نظر يهدف من ورائه تطهير نفوس أتباعه وحملهم على الإيمان بما وراء الطبيعة[1] وإن كان فيثاغورث هكذا فإن فيلون يميل إلى كل ما هو دينى ويفضله على من نعته بالورع والتقى وهو على غير دين،أعنى، أرسطو، وهذا النقد الذى وجهه للرواقيين على نطاق ضيق سيتبعه بحثا موسعا على حدة ينقد فيه المبدأ الرواقى فى العالم.

الرأى الثانى: وهو أن العالم مخلوق وغير قابل للفساد فينتقد فيه أفلاطون فى محاورة تيمايوس[2]، ويعرض لرأى أرسطو فى كتابه المسمى عن السماء حين نقد أفلاطون فقال أرسطو فى عبارة مؤداها «يرى البعض أن الفكرة الغامضة التى تمسك بها أفلاطون عندما تحدث فيها عن أن العالم مخلوق، لم يقصد أن العالم بدأ من وجود مخلوق فإذا تم خلقه فإنه سوف لا يتم تشكيله أفضل من الطريقة التى صنع بها أو التى يستخدمها هو، وذلك لان أجزاء العالم أدركت عند قدومها للعالم أو تغيرت»[3].

(1) د/ مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى، الجزء الأول السابقون على السفسطائيين، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة 1998 ص 160.

(2) اعتمد فليون فى رأيه الثانى على النص الأفلاطونى القائل «يا آلهة من آلهة أنا مبدعها وأبوها، إذ هى مصنوعات أحدثتها محبوكة لا تنفصم عراها، الم أشأ ذلك، وبالتأكيد كل ما ركب يحل، ولكن ابتغاء حل ما نظم وانسجم انسجاما بهيا فطابت حاله، وهو مبتغى الشرير، ومن ثم بما أنكم محدثون لستم خالدين ولا صامدين كل الصمود، لا تفك عراكم، ومع ذلك لن تنحلو، وهذا أكيد، ولن تلقو مصير الموت لان إرادتى هى لكم رباط أعظم وأقوى من الربط التى سددتم بها عند مولدكم، فنعلمو الآن إذن ما أقول وأبين لكم» انظر أفلاطون محاورة تيماوس 41 a ص 241.

(3) Aristotle: de caelo, transnated by: j, l, stock, the works of Aristotle vol1, oxford, at the clarendon, press, London, 1947, ch 1, 10, 279 b, p 34.

وهذا النص الذى يعرضه فيلون لأرسطو يعبر عن رؤية ناقصة لأفلاطون لأن أفلاطون كما يرى فيلون يتحدث عن واجبات المبتكر كصانع أو كأب أو كصانع وهذا العالم فى أعماله نسخة محسوسة لبناء أو نموذج معقول، محتو فى ذاته كموضوعات حسية، هذه النماذج تحوى موضوعات عاقلة، مطبوعة تنطبع فيها الأشياء المحسوسة ـ لذا فالإدراكات الحسية كاملة كالموجودات التى فى العقل[1]، يعتبر هذا الموقف الذى اتخذه فى هذا الرأى موقفا إيجابيا نحو أفلاطون على عكس الجانب السلبى الذى اتخذه تجاه أرسطو والرواقيين، ولكن فيلون لم يتحر الدقة فى فهم نص أرسطو السابق حيث يرى جثرى GUTHRIE أن المقصود بكلمة البعض فى هذا النص ليس أفلاطون وإنما المقصود سمبليقوس SIMPLICIUS واكسينوقراط XE-NOCRATES وبعض الأفلاطونيين الآخرين[2].

الرأى الثالث وهو موقف تجاه هزيود الذى أطلق على العالم «أنه غير مخلوق وغير قابل للفساد، فهو غير مخلوق لأنه يقول فى البداية كانت المادة CHAOS، ومن ثم خلقت الأرض فكانت مقاما أمنا لكل شىء[3]، وغير قابل للفساد لأنه لم يعلن انه سيحل أو سيفسد، والمادة عند أرسطو مكان لان الجسد لابد له من مقوم يقف عليه، وهؤلاء على حق ولكن موسى الذى أعطى الشريعة لليهود سبقهم حين رأى أن العالم مخلوق وغير فانى وهو يبدأ بالقول» فى البدء خلق الله السموات والأرض مرئية بدون صورة[4] ثم يستمر فى القول حتى يصل «الليل والنهار والفصول والسنين والشمس والقمر، التى هى وظيفة طبيعية لقياس الزمن»[5].

(1) Philo: Eternity, chv, 6 p 5.

(2) Guthrie: AHistory of Greek philoshy, volvi combridge univesity press, 1995

(3) Aristotle, physics, translated by: R, p, hardie and R, k, Gaye, the works of Aristatle voli, London 1947, ch iv, 1, 208, P 29.

(4) سفر التكوين، 1/1.

(5) philo: Ėtarinty, chiv, 18 -19, P 197.

إن الرأى الثالث الذى يعرض له فيلون يحتوى على دوجماطيقية واضحة، حيث ذكر أن هزيود يرى أن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساد، وفى نفس الوقت يرى أن هزيود جانبه الصواب،حيث إن قوله يتوافق مع الشريعة اليهودية التى أتى بها موسى، أو على وجه الأخص، مع السطر الأول من سفر التكوين الذى يرى أن العالم مخلوق «فى البدء خلق ألوهيم السماوات والأرض» فلا نستطيع هنا أن نفهم كيف يساوى الغير مخلوق الهزيودى بالمخلوق الموسوى؟ إن ذلك مناف للعقل.

ربما قد يرجع التقارب أو النقد الايجابى الذى يقدمه فيلون لهزيود علة أن هزيود أول من حاول أن يقدم تفسيرا لنشأة الكون أو الآلهة يقوم على نوع من السياق المنطقى والسببية، فالجزء يخرج من الكل، والسبب قبل المسبب، والأصغر يخرج من الأكبر، وعلى ذلك فقد أخرج الجبال من الأرض، والأنهار من المحيط، ولا شك أنها أول محاوله فى العلم الطبيعى[1].

قد يرجع هذا التقارب إلى فكرة السقوط أو التدهور المستمر للجنس البشرى والتى أشار إليها هزيود وهى موجودة فى الأساطير والدين والفلسفة، فمن ناحية تقول الأديان الكبرى بحياة أولى سعيدة (أدم فى الجنة) ثم الخروج أو السقوط كعقاب على الخطيئة ثم تتدهور الأمور حتى تقوم القيامة، وكذلك من ناحية أخرى،جميع الفلاسفة الثنائيين بعد هزيود مثل سقراط وأفلاطون[2] أشاروا إلى فكرة سقوط النفس من عالمها الأول الروحى السعيد وندمها على الحلول فى الجسد ثم طلبها النجاة أو الخلاص عن طريق صوفى روحى، حتى تنفصل عن الجسم وتنجو بعد الموت[3].

(1) E, zeller: outline of the history of Greek philosophy, translated by l, h, planet, dover publications, 13Th ed in new york 1980, p 26.

(2) انظر أفلاطون: محاورة فيدون، ترجمة د/ عزت قرنى، مكتبة الحرية الحديثة، الطبعة الثانية، القاهرة، 1979، 70 a، وأنظر أيضا محاورة مينون لأفلاطون، ترجمة د / عزت قرنى، دار النهضة العربية، القاهرة 1975، 81.

(3) E, Zeller: op, cit, p 27.

«بجانب تلك الديموجماطيقية التى أفترضتها ولم أجد لها حلا ولو بالسفسطة، نجد أن فيلون فى رأيه الثالث الذى يعرض له يقتبس من أفلاطون وظيفة الإجرام السماوية ـ الشمس والقمر، الليل والنهار ـ كمقاييس للزمن، حيث ذكر أفلاطون أن الزمن حدث مع الفلك»[1]، ربما يناقضنا البعض ويرى أن ربط الأجرام السماوية بالزمن شىء فطرى لدى الإنسان، فيتهمنا بأننا نقحم على الأمر ما ليس فيه، إلا أننا نقول لهؤلاء أننا بإزاء مفكر دينى لا يعطى ما للفلسفة للفلسفة وإنما ما للفلسفه للدين، أعنى، لا يوجد ما يسمى بموروث فلسفى، إن الموروث الفلسفى ألهمه موسى للفلاسفة، حيث إن موسى سبق الفلاسفة فى حكمتهم[2].

تلكم هى الآراء الثلاثة التى نقدها فيلون فالأول: هو الرأى الرواقى وأرسطو، فالرواقية جاءت بتصور عن أبدية العالم يحمل معنيين الأبدية والفناء معا، وأرسطو الذى رأى أن العالم غير مخلوق وغير قابل للفساد أما الثانى، فهو لأفلاطون حيث إن العالم مخلوق وغير قابل للفساد، والثالث، جسد موقفه تجاه هزيود، وهذه الآراء الثلاثة أمثله انتقائية تمثل صراع هيجليا بالمعنى المعاصر، إن كانت قد طرحت من جانب فيلون فإن هذا الطرح لا يكشف عن مضامين فكره الدينى فى أبدية العالم، حيث إن نقد هذه الآراء التى مثلت أمامنا لا تعبر عن خط مستقيم أو قاعدة أساسيه تنم عن فكرة، وإن كان هذا هكذا، فإن فيلون يحول أذهاننا بعد ذلك إلى دراسة أيديولوجية أكثر دقه وتفصيلا وهى مسألة علل فساد العالم.

(1) أفلاطون، محاورة تيمايوس، مرجع سابق 38 c p 229.

(2) Philo, on the creation, ch ii, 8, p 9.

رابعًا: علل فساد العالم

طرحنا فيما سبق لموقف فيلون من بعض الآراء السالفة الذكر، إلا أن الإشكالية ـ أبدية العالم ـ تأخذ منحا جديدا فى هذا الطرح المعنون ـ بعلل فساد العالم ـ لأن فيلون سوف يناقش أيدلوجيات فكرية ويضرب فى المعتقد الدينى من العمق وهو يطرح علينا تساؤلا، هل يمكن أن تكون علة فساد العالم علة داخلية أو خارجية؟ أم أنه لا يفنى بهذا أو ذاك؟! وما الموقف الدينى أن كانت إحدى العلل هى مصدر فساد العالم؟

إذا جئنا للتساؤل الأول ـ هل يمكن أن تكون علة فساد العالم علة داخلية أو خارجية؟[1] ـ فإن الإجابة بالسلب من جانب فيلون فالعلة الداخلية أو الخارجية لا يمكن أن تؤدى إلى فساد العالم.

بداية أنكر فيلون ما يسمى بعله خارجية أو قوى خارجية، حتى وإن كان هناك قوى خارجية فهذه القوى عبارة عن خلاء أو صورة مجهولة للوجود لا يمكن أن تكون فاعلة أو منفعلة، وكذلك أنكر ما يسمى بعلة داخلية، لأننا هنا سنفترض أن الجزء أكبر من الكل، وأن العالم تستحث أجزائه، وأنه لا يستحث[2]، إن لم يكن العالم يفنى بهذا أو بذاك ـ عله داخلية أو خارجية ـ فهل يمكن أن يكون مصدر الإفساد ثنائى؟! إن مصدر فساد العالم لا يمكن أن يكون أيضا ثنائيا لأن الأشياء التى تكون لأحد المصدرين، تكون بالتأكيد

(1) العلة الداخلية لفساد العالم وهى تشبه الحديد والنحاس والمواد التى على شاكلتها والتى لا يمكن أنة تتلاشى فى ذاتها عندما تتعرض للصدأ، الذى يطفو حولها كالمرض، أما العلة الخارجية فهى كالمنزل الذى يتعرض للنار أو العنف كالبركان، الإنسان يمكن أن يتعرض لهاتين العلتين فيموت بعلة داخلية كالمرض، أو يموت بعلة خارجية كالموت والذبح والجوع، وكذلك العالم لو أنه يفنى فلابد وأنه يفنى من علة خارجية أو من مكونات ذاته Philo: EAtarnity, op, Cit, ch 5, 21, p199.

(2) Philo: Eternity, ch 5, 23, p 201.

موضع شك للأخرى، وبرهانا على ذلك، الثور والحصان والإنسان وغيرها من المخلوقات عرضة للقتل بأداة حديدية أو عرضه للموت بالمرض، ومن الصعب،بل من المستحيل أن نجد أى شيىء إذا وضعنا العلة الخارجية عله لفساد العالم، لأنه سيصعد برهان داخلى أو علة داخلية[1].

ذلك يعنى أن العالم لا يمكن أن يفنى بالعلة الداخلية أو الخارجية أو الاثنين معا لأن تنسيق العالم قد استوعب مكوناته، ولتأكيد ذلك لجأ فيلون إلى مصدرين، الأول وهو أفلاطون، و الثانى القانون الطبيعى، فأفلاطون يرى «لكى يكون العالم حيا ومتكاملا فى غاية التكامل مؤلفا من كامل الأجزاء ولكى يكون واحدًا فريدًا، إذا لم يتبق ما يمكن أن ينشأ عنه عالم آخر مماثل ولكى لا يشيخ ولا يقتل فإن عوامل الحرارة والبرودة، وكل العوامل الأخرى ذات المفاعيل العنيفة إذا أحدقت من الخارج بجسم مركب، ووضعته فى إناء فهى تفككه، وتجلب الأمراض والهرم، وتؤدى به إلى الدمار والبوار، ولهذا السبب هندس الإله العالم وجعله فريدا، شاملا، متكاملا، من جميع أجزاء العناصر، لا يهرم ولا ينتابه داء»[2].

إن كلام أفلاطون هنا بينه لعدم قابلية العالم للفساد، وهذا مرجعية أولى أو مصدر يستند إليه، أما المصدر الثانى، أعنى، القانون الطبيعى يستند إليه فى عدمية الخلق ويفند به القول القائل «إن ما يولد يموت»[3] ويمكن أن نفهم من القانون الطبيعى الارتباط العلى بين الميلاد والفساد، فالأشياء التى تفسد تحل مما ركبت منه، أعنى، أن الانحلال فى شروط التكوين، وهذا التكوين المضاد (المقلوب) قابله مقومات جمعت من الشروط غير طبيعية، فنحن مزيج من العناصر الأربعة (الأرض، الماء، الهواء، النار) التى

(1) Ibid: chvi, 25, p 203.

(2) أفلاطون، محاوره تيمايوس 32 ص 217.

(3) «ما يولد يموت» قول مجهول المصدر، «الباحث».

فى جملتها مكونات العالم[1]، ونحن اقتبسنا جزءًا يسيرًا منها، هذه الأجزاء مزجت وفقدت تركيبها الطبيعى[2] فالقانون الذى يحكم الفساد عندما تكون كل الأشياء فى حالة وجودها مجتمعة فإنها تكتسب شروط انحلالها فى استبدال نظامها الطبيعى وتأخذ طريقًا نحو وظيفة معكوسة لطبيعتها، لذلك تبدو أنها غريبة فى أرض غريبة،ولكن عندما تحل تعود إلى الشرط الخاص لطبيعتها، فإن ما ينبت من الأرض يعود إليها، الأثير يولد ويعود للقبه الزرقاء فى السماء، ولا شىء يولد يمكن أن يموت، فقد تشتت أجزاؤه من قريب أو بعيد، ويأخذ صورتة الخاصة[3].

الملاحظ هنا أن فيلون يستند إلى أفلاطون والأسباب العلية فى القانون الطبيعى لا ليؤكد فلسفة أبدية للعالم وإنما اختار من النصوص الأفلاطونية ما يؤكد أن الإله قد هندس العالم، واسرد القانون الطبيعى ليدلل على أن الإله أعطى العالم فى حال انسجام كلى، فكل شيىء وظف فى وظيفتة الطبيعية ليؤدى دوره كى يسير العالم نحو الأبدية، أو يكون العالم فى حاله ديمومة، لأن ديمومة العالم تعنى ديمومة الله، كما سنرى لاحقا، وإن كان ذلك كذلك، فإن فيلون هنا يريد أن يؤكد فكرة دينية وهى أن الله كاملا، والكامل لا يعطى نظاما ناقصا أو عالما به خرقٌ طبيعيٌّ.

«إن الرب غرس فى الطبيعة غريزة أن تناضل كى تصون الشىء الذى له طبيعة، حتى وإن كانت قادرة على تحويله إلى شىء فان، فالأفعال الطبيعية

(1) Philo: on Dreams 1, ch 111, 15, p 303, and see also, philo: on moses I, chxx, 113, p333.

(2) Philo, Eternity, chiv, 28 p 205.

(3) هذا النص منقول من الرواقية، وعلى الأخص،كريسيوس يوريديس، وسكوتس امبريقوس، وقد تناقله كثير من المفكرين ومنهم كلمينت السكندرى وفيلون محل الدراسة (الباحث).

للشجرة موجودة فى الشجرة، وطبيعة الحيوان موجودة فى كل نوع للحيوان، فطبيعة العالم ترغب فى الاحتفاظ بالكل»[1] فالعالم من هنا غير قابل للفساد لأن الطبيعة التى حافظت عليه باستطاعتها أن تربطة.

هنا يرجع فيلون إلى محاورة تيمايوس ليؤكد أن الطبيعة كفيلة أن تجعل العالم أزليًا حيث يقول أفلاطون لا شىء يخرج من العالم، ولا شيىء يلجة من أى مصدر كان، إذ لم يلبث، ولا شىء (خارجا عنه)، فهو بذبوله يوفر الغذاء لذاته، وقد ولد عن قصد ليتأثر بذاتة فى ذاته، ويصنع كل شىء بذاته فى ذاته، لأن الذى ركبت عناصره، اعتقد، أنه خير له أن يكتفى بذاته من أن يحتاج إلى الأشياء الأخرى[2].

لم يكن أفلاطون فحسب من يقرر أن العالم يحافظ على ذاته من ذاته ولكن فيلون بأفلاطونيته يرجع دائما إلى نصوص أفلاطون متغاضيا عن من سبقه أو تلاه، فالحقيقة السابقة قررها هيرقليطس فى عبارة مؤداها «ما يوجد فينا شىء واحد، حياه وموت، يقظة ونوم، صغر وكبر، فالأولى من (الأضداد) تتحول وتصبح الأخيرة، والأخيرة تصبح الأولى»[3] ويعنى بذلك أن الصراع بين الأضداد فى الأشياء قائم على العدل، أعنى، صراعا ديناميكيا يتضمن توافقا خفيا للعالم، حيث إن «الائتلاف الخفى أفضل من الظاهر»[4] ـ على حد تعبيره، فالنظام الحالى للعالم يستمر على ما هو عليه طالما حدثت العدالة أو التوازن بين القوى المتصارعة، رغمًا من تشابه الفكرة التى يقررها فيلون بمثيلتها عند هيرقليطس ـ تلك الفكرة التى افترضناها ـ إلا أن هناك اختلاف جوهرى يرجع إلى علة هذا الكون، بين هيرقليطس و فيلون، حين

(1) Philo: Eternity, chvii, 38, p 211.

(2) أفلاطون، محاوره تيمايوس 33c -d p218.

(3) د/ أحمد فؤاد الأهوانى: فجر الفلسفة اليونانية، ص 120.

(4) المرجع السابق، ص 122.

يقرر هيرقليطس أن الكون ليس فى يد الإله إنه حدث صدفة خارج إرادة الآلهة أو البشر، ولا يتدخل فيه لا هذا ولا ذاك، وهو لعبة لقوى خفية سواء أوجدتها اعتباطا أو لم توجدها فإنها توجد كما قدر لها[1]، فالكون هنا حدث صدفه وليس للإله يد فى خلقة، وهذا القول ينافى ما رآه فيلون فالكون عنده بيدى مدبر حكيم هو الرب، وربما يكون هذا السبب الذى جعل فيلون يذكر رأى أفلاطون ولم يذكر المتقدمين عليه مثل هيرقليطس.

نستخلص من هذا كله أنه ليس هناك أى علة سواء أكانت علة داخلية أم خارجية أم كلتيهما معًا يمكن أن يكون عله لفساد العالم وذلك توافقا مع الموقف أو الفكر الدينى الذى رآه فيلون، وخاصة أن علاقة الرب بالعالم تكمن فى عدم تغيير قواعد الطبيعة وهو ما يكفل للعالم الوحدة السرمدية، وخاصة يكتمل فهم هذه العلاقة من خلال حرص الرب على إقامة هذه العلاقة، التى يشبهها فيلون بعلاقة الأب بأبنائه، أو يمكن أن تفوق علاقة الأب بأبنائه، حيث لا يرحم الأب أبناءه حين يخطئون، ولكن يتصف بالرحمة[2].

وهذه العناية الإلهية التى أولاها للعالم لا تفسده، والقول بان العناية تفسد فهذه شناعة، لأن العناية إذا كانت قابله للفساد، فالعالم بالطبع قابل للفساد[3]، أى أن هناك ارتباط علىّ بين عناية الرب من ناحية وبقاء العالم على سرمد يته من ناحية أخرى.

---

(1) د / على سامى النشار ود / أحمد محمود صبحى، نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان، منشاة المعارف الاسكندرية، 1964، ص 11.

(2) Philo: provdanceII,The works of Philo, Harvared university press, 1962, voL Ix, ch 3, 10, p 17.

(3) Philo: Eaternity, ch 10, 54, p 221.

خامسًا: الأبدية بين الزمن وعوامل فساد العالم

إذا كان نقد فيلون للسابقين لم يكشف عن نسق كامل لأبدية العالم، وإذا كانت العلل بنوعيها ـ الداخلية والخارجية ـ لا تفسد العالم وهى تتساوى مع النقد السابق فى عدم الكشف عن المضمون الحقيقى للأبدية، فإن علاقة الزمن والأبدية تمثل بعد جديدا يشترك مع الأبعاد السابقة لتكوين مذهبًا متكاملًا عن الموقف الدينى عند فيلون من الأبدية، ولا يعنى ذلك أن هذا البعد عن المشكلة ينفصل عن البعدين السابقين وإنما تتلاحم الأفكار وتتسلسل وتتداعى ـ على حد تعبير ـ هيوم إلى أن تصل إلى معنى كلى للأبدية من خلال الأبعاد الجزئية التى ناقشها فيلون.

إن العالم عنده مماثل فى ديمومتة للزمن، أعنى، إذا كان الزمان مخلوق فالعالم مخلوق أيضا، «لأن الزمن هو استنتاج من الأيام والليالى والشهور والسنين، حيث لاشيئ يكون منها بدون حركة الشمس وأفلاك السماء ككل[1] فمن هنا فسر الأشياء كمقياس للزمن فهو على صواب، فالعالم مماثل فى الأبدية للزمن و مصدره الأصلى»[2].

«ومن المستحيل أن نفترض أن هناك زمن عندما كان العالم، فالزمن لم يكن موجود، فالزمن بطبيعته ليس له بداية أو نهاية، ومعان مثل متى when أو كان was وغيرها تحوى فكرة الزمن، وبالتالى الزمان ليس موجودا فى ذاته عند وجود الزمن، لأن ما لا يوجد لا يتحرك، والزمن لم يظهر ليكون مقياسا لحركة الكون، ولا بد أن يكون الزمن موجودا منذ الأزل، لان ما يوجد منذ الأزل لا يكون عرضة للفساد[3].

---

(1) انظر أفلاطون فى محاورة تيمايوس، 38 c, p 229 حيث يرى أفلاطون «أن الزمن حدث مع الفلك، ليولدا معا وينحلا معا، والفلك هو كان وهو كائن وسوف يكون بلا انقطاع ما دام الزمن».

(2) Philo: Eternity, ch 10, 52, p 221.

(3) Ibid: ch 10, 53, p, 221 and see also, philo: on the creation, chvii, 29, 23.

إن الرب حين خلق العالم وقال على لسان موسى «فى البدء» لم يقصد تحديدا كرونولوجيا، إنما يقصد بها النظام العددى فعندما يقول موسى «فى البدء خلق» تساوى الأول خلق السماوات[1]، وعندما ذكر الرقم 6، لأن الأشياء لا تحتاج إلى زمن، إنما تحتاج إلى أمر، والأمر يستلزم عدد[2]، والزمن ليس سابقا للعالم، إنما بدأ فى وقت واحد مع العالم أو بعده،لأن الزمن يحدد بحركة العالم،والحركة لا يمكن أن تكون سابقة على الموضوع المتحرك فالغالب أن يظهر بعد العالم أو معه فى وقت واحد، إذن من الضرورى أن لا نجازف فى إثبات أقدمية ميلاد الزمن لأن ذلك يعد تطرفا بالمعنى الفلسفى[3].

وإن كان ذلك كذلك، فالزمن لا يمكن أن يكون أزليا كالعالم فهو إما أن يكون مساويا للعالم فى الخلق وليس سابقا عليه، وإما أن يكون مخلوقًا بعديًا للعالم، وإن كان هناك حجة على ذلك فإنها تظهر فى الحركة التى تعد ملحقة من ملحقات الزمن عند الفلاسفة كأرسطو والمشائيين وغيرهم، فالحركة عند فيلون كموضوع منفعل غير سابقة على الموضوع الفاعل، وهذا مما دعاه إلى انتقاد بعض الرواقيون الذين لا يفسرون الزمن كمقياس للحركة فى العالم الحالى إنما سلموا به فى الاحتراق الكونى[4].

ربما قد يتساءل الباحث إذا كان الزمان عند فيلون مخلوق مع العالم كافتراض قدمه من افتراضين ـ معه أو بعده ـ فلماذا لا يكون الزمان أزلى بجانب أبدية العالم؟ والإجابة هى أن فيلون لم يقدم خيارين كما يرى المتسائل إن فيلون عندما قال معه فإنما قصد خلق العالم والزمن فى اليوم

(1) Philo: on the creation, ch vii, 26, p 21.

(2) Ibid: ch 111, 13, p 13.

(3) Ibid: ch 111, 27, p 21.

(4) Philo: Eternity, ch 10, 54, p 221.

الأول من الخلق، حيث خلق الله (الرب) العالم الواحدى شبيه عالم المثل، وعندما رأى فيلون أن الزمن جاء بعد العالم قصد به خلق العالم المحسوس فى اليوم الرابع، الذى شهد خلق السماء وأجرامها، وإذا كانت أجرام السماء قد خلقت فمعنى ذلك بداية وجود الزمن، لأن الزمن نتيجة دوران الأجرام كالشمس والقمر، وبالتالى فالزمن مخلوق مع العالم المعقول، ومخلوق بعد العالم فى العالم المحسوس، وهذا التفسير يؤكد أبدية العالم وليس أبدية الزمن، إذا كان الزمن دليلًا على أبدية العالم فميلاد البشرية فى الزمن دليل أخر على الأبدية، لا يمكن أن نعزوا ميلاد البشرية إلى الأرض كما قال كريتلاوس الذى يوافقه فيلون فى قوله فى أزليه العالم ولا يوافقه على قوله بأنه إذا كان العالم مخلوق لكانت الأرض كذلك، ولو كانت الأرض مخلوقة فكذلك الجنس البشرى[1].

وهذا الاعتقاد يرى أن ميلاد البشرية من البشرية التى هى عمل متأخر للطبيعة، فى وقت مبكر، فهم البشرية صورة أصلية لأجيال الأرض،لأن الأرض أم لكل الأشياء، فالبشر كالأشجار ينبتون وينمون من الأرض، وهذا التصور تصور أسطورى ويمكن دحضه من جانب فيلون، فميلاد الإنسان الأول تبع فترات زمنيه ومقاييس عديدة ثابتة،لأن الطبيعة خلقت مراحل للزمن على سبيل ما يقال «ينمو» و«يموت»، والحد الأعلى لهذه المراحل مرحله الشباب وعندما يصل إلى هذه المرحلة لا يزيد تقدمه، أما من يعتقد انه يولد مكتمل النمو من أول وهلة فإنه جاهل بقانون الطبيعة، ومثل هذا الاعتقاد لا يرى أن الإنسان يمر بمرحلة الطفولة، الصبى، الشباب، والرجولة، إنما يعتقد أن الرجولة جاءت مرة واحدة، وهذا برهان مضاد للهرم والموت من جانبه، وهذا مناف للعقل، لأن ما هو ليس موضوع للزيادة ليس موضوعا للنقصان أيضا، وعملية التغير للرجولة هو موضوع للزيادة، والتغير من الرجولة إلى

(1) Ibid: chxi, 56, p223.

الهرم موضوعا للنقصان، ومن المعقول أن الشخص الذى يعفى من الفئة الأولى من التغير ينبغى ألا يكون موضوعا للأشياء التى تليها[1].

ويعنى ذلك، أنه إذا كان ميلاد البشرية من الطبيعة فإن ذلك يجعلها تنازع العالم فى الأبدية، وهى موجودات ثابتة، وخلقها من الطبيعة لا يجعلها موجودات فانية، على عكس ما يرى فيلون فى فكره الدينى أن الله حين خلق الإنسان خلقه على صورته أو شبيهه، وجعل الإنسان الفانى يدور حول الأبدى[2] فالإنسان ليس مخلوقا أزليا للعالم وإنما يخضع لتطورات الزمن من طفولة، شباب وكهولة، ثم يتبع ذلك الموت.

إن فيلون قد فهم خلق الإنسان ـ البشرية ـ من الطبيعة بمفهوم تطورى أو أرتقائى ولم يدرك المغزى الأساسى عند الرواقية ممثلة فى شخص كريتلاوس فهو أن الله روح العالم وهو نفس نارى لا صورة له ويتخذ صورة الأشياء كما يشاء، والله كامن فى الإنسان كمونه فى كل شىء[3]، ومادام الله هو نار أبدية وهو مبدأ فعال فإنه يجعل من الأرض مبدأ منفعل فيخرج الإنسان وبه جزء من الله أو جزء من النار الأبدية، ويصبح بذلك الإنسان أزلى، وما يوضح ذلك أن الرواقية ساوت بين الله والإنسان فى الكيف فكلاهما جسم، لأنه الله لو كان لا جسميا فكيف يؤثر فى الأجسام[4]، وبناء على ذلك فكون الإنسان مخلوق من الطبيعة عند الرواقية فإنه مخلوق من الله ـ النار الأبدية ـ ولا يمكن أن يفهم على نحو أرتقائى أو تطورى.

إذا كان الإنسان والكائنات الحية عرضة للعلل العارضة التى تؤدى بها للهلاك وهى المرض والهرم، الموت (العدم)، فإن العالم لا يمكن أن يكون

(1) Ibid: chxi, 60, p225.

(2) philo: on the creation, chxxi, 77, p 61.

(3) د/ عثمان أمين، الفلسفة الرواقية ص 181.

(4) نفس المرجع ص 153.

فريسة لأى منها، لأنه مركب من العناصر ككل، لذا لا يمكن أن يعانى من طغيان جزء على الأخر، أو أن يخرج جزء عن إطاره الذى حدده الرب له، فالعالم له سيادة تعلو عامل الزمن الذى تحدث فيه هذه العلل، فالعالم مكتف بذاته، ومفتقر إلى غيره، وطبيعة العالم مع طول الزمن long - age تستبدل النظام بالفوضى، والتوافق بعدم التوافق، والتوافق بالتضارب (الانقسام على الذات) من الوحدة إلى التجزئة[1].

وإذا كانت العلل العارضة التى لا تفسد العالم وعلى الأخص علة الهرم التى تتعلق بالزمن، فإن الرواقية تدفع بمنهجية أخرى لفساد العالم، وهى أن فساد العالم يأتى من ثلاثة أشياء، اللاعضوية، الإبادة التامة للصفات المنتشرة والاندماج، تلك الأشياء التى تحدث أثناء الاحتراق الكلى.

فالعضوية تعنى تفكك الوحدات أو الأجزاء الموجودة فى العالم، والإبادة للصفات تعنى هو أن تأخذ الصفات شكلا أخرًا غير شكلها، والاندماج يعنى أن تجمع الأشياء المتناثرة عن الإبادة.

وهذه الأشياء التى تحدث فى زمن الاحتراق الكونى عند الرواقية لا يمكن أن تكون أسبابا لفساد العالم، على حد اعتقاد فيلون، وذلك لأن العالم لا يتركب من وحدات منفصلة لأنه لو كان كذلك لكانت أجزاؤه مشتته والعالم غير ذلك، ولو كانت أجزاءه متصلة لكانت عرضة لأن تنحل أو تتجزأ، فالعالم ليس كأجزائنا الجسمية الفانية التى تفنى فى زمن معين، ولكن العالم منذ أن خلق وهو يسير حتى وقتنا هذا على مستقيم دون أن ينحل، أما كون العالم يفسد بالإبادة فهذا رأى مناقض للحقيقة، لأن الإبادة تكون فى المادة الناقصة وهى زيوس zeus [2] ولنفرض جدلا أننا سلمنا بأن الفساد

(1) Philo: Eternity, chxv, 75, p 237.

(2) عن كلمة زيوس عند الرواقية تعنى النار وهى الإله، انظر -zeller: stoic, English trans lation, dover, publication, new york, 1985, p 228.

جاءنا من لا وجود فهذا يقودنا إلى أن كل الأشياء فسدت وربما تأخذ أو تتغير إلى شيء أخر، أما إذا قالت الرواقية أن الكل أبيد عن طريق الاندماج، فإننا نعتذر لافتراض شيء غير ممكن. ([1])

إن كان ذلك كذلك فإنه يقودنا إلى القول إذا كانت كل الأشياء أبيدت أثناء الأحتراق فماذا سيصنع الله أثناء هذا الزمن؟ هل سيتوقف عن العمل أو لا يفعل شيئا على الإطلاق؟ إن كنا نقول ذلك، فإن ذلك استدلال طبيعى لما يقولون.

إن الله عند فيلون «قدر كل الأشياء وأحاطها وهو أبُ لها، ومرشدُ لعجلة الحقيقة ـ عربة قديمة تجرها الخيول ـ وقائد للعالم، والمثبت للشمس والقمر والنجوم سواء الثابتة أو المعلقة، وكذلك الهواء، وكل أجزاء العالم الأخرى»[2]، وهو الذى يهيئ الطبيعة كى لا تتغير قوانينها عن طريق الوحدة السرمدية التى بثها فيها[3] حيث إن علاقة الصانع بعمله أن يصونه أو يحفظه بأى وسيلة ولا يترك إرثه يضيع أو يؤذيه أحد، وهو يؤكد دائما برغبة حاتمة أن يحمى العالم والإنسان بكافة الطرق[4].

لم تكن العناصر الثلاثة السابقة هى مبادئْ وحيدة لإفساد العالم، وإنما هناك أربعة مبادئ أخرى حاول فيلون أن يضعها تحت مجهر الفكر وهى: الإضافة، والطرح، الانتقال، والتحول، أما بالنسبة للإضافة فيتساءل فيلون هل يمكن أن يضاف شيء للعالم ليفسده؟ والإجابة من جانب فيلون بالسلب حيث لا يمكن أن يكون هناك شيئا خارج العالم أو من ذاته يضاف إليه لأنه كل شيء، وهذا الكل يحوى الكل، أما الطرح فيعنى أن كل شيء

(1) Philo: Eternity, ch xv1, 82, p 243.

(2) Ioc, cit.

(3) Philo: provdannce II, ch 3, p 461.

(4) Philo: on the creation, ch ii, 11, p 11.

طرح فى تحوله عالم مشابه للعالم الحاضر، وهذا مستحيل لأن أى جسم لا ينفصل عن المادة التى تليه ويخرج نطاق الكل، والتحول هو أن تتحول أجزاء العالم، وذلك أيضا مستحيل، لأن أجزاؤه لا يمكن أن تتحول أو تتغير، وذلك لأن الأرض فى أى مكان لا تقف فيها الجبال على الماء، ولا الماء على الهواء، ولا الهواء على النار، ومن الطبيعى أن العناصر الثقيلة ـ التراب والماء ـ تشغل موضع مركزى، فالتراب يميل وعائه للماء، والماء يطفو على السطح، زمن الطبيعى أيضا أن الهواء والنار مكانا أعلى مع الاختلاف، فالهواء وعاء لبقايا النار، والبقايا وعاء يحمل أعلاها[1].

يبدو ذلك رد فعل للرواقية القديمة التى تقول بوجود فراغ لا نهائى خارج الكون وفى هذا الفراغ ينحل فى الكون دوريًا عندما تأتى نوبات احتراق العالم، ذلك القول الذى عدل منه «بوذيدونيوس» وهو الرواقى ذو الاتجاهات الأرسطية، حيث حاول على العكس من ذلك جعل الفراغ محدودا: فلا يوجد حول الكون من الفراغ إلا القدر الضرورى لاحتواء المواد التى سينحل إليها الكون عند احتراق العالم، ومن الواضح للعيان أن هذا الموقف توفيق بين أراء الرواقية القديمة وأراء أفلاطون وأرسطو الذين أنكروا إنكارًا باتًا وجود فراغ فهما يعتبران أن التساؤل حول ما يوجد خارج السماء هو، بمعنى ما، سؤال بغير معنى، حيث إن الكون يحيط بكل شىء يوجد فى الزمان والماء، فالكون والكل شىء واحد عندهما، وخارج الكل لا يوجد شىء[2].

ويعنى ذلك أن فيلون فى إنكار الإضافة كان أرسطوطاليسيا وأفلاطونيا ومضاد للرواقية، أما رأيه فى التحول فهو لم يحد عن أراء الفلاسفة حين

(1) Philo: Eternity, chxxii, 115, p 265.

(2) أولف جيجن: المشكلات الكبرى فى الفلسفة اليونانية، ترجمه عن الألمانية د/ عزت قرنى ـ دار النهضة العربية، القاهرة 1976م ص 264 – 266.

وضعوا الأرض مركزا للعالم[1]، حيث إن الرأى القائل بأن الأرض تقع فى وسط الكرة التى تحيط بها السماء، ولم يحدث إلا نادرا أن ابتعد الفكر الفلسفى عنه، فهزيود وصف الأرض بأنها ثابتة وراسخة، وأنكسماندريس رأى أن الأرض ساكنة لأنها تقع فى مركز دائرة الكون تماما، فهى بالتالى تقع على أبعاد متساوية من كل جوانب محيط الدائرة، وهى بمعزل عن صدمة قد تحركها سواء إلى أعلى أو إلى أسفل، إلى اليمين أو اليسار، وكذلك الذريون رأوا أن عالم الكواكب يدور بسرعة عظيمة جدا، بينما يبقى وسط الدوامة، أى الأرض، ثابتا[2].

وهذا التساير مع الفلاسفة، أعنى، موافقة أفلاطون وأرسطو فى نقد الإضافة كعلة لفساد العالم، وموافقة كل من هزيود وأنكسماندريس وغيرهم ممن قالوا بثبات الأرض ومركزيتها كنقد للتحول كعلة أيضا لفساد العالم، هو محاولة من فيلون لتقريب ما أتى به العقل الهيلينى لإثبات فساد ما وصل إليه العقل الهيلنستى عند الرواقية من ناحية وإثبات القضية الأساسية وهى أبدية العالم التى قررها العهد القديم على لسان موسى من ناحية أخرى وقد قلنا من قبل أن فيلون حين يستعرض أراء الفلاسفة لا لإثبات مكانتهم وإنما لإدخال ما هو عقلى إلى ما هو نقلى عن موسى، وإن كان ما هو عقلى وما هو نقلى على السواء ينسب لموسى، لأن الله أعطى الحكمة كاملة له.

سادسًا ـ نقد مبدأ النار فى أبدية العالم

رفض فيلون المبدأ القائل بأن النار ستحل كل الأشياء أو أنها تحدث إعادة الميلاد rebrith وهذا الرفض جاء من منطلق دينى فى عبارة مؤداها

(1) Philo: Eternity, chxi, 63, p 227.

(2) أولف جيجن: المرجع السابق ص 246 - 266.

«إذا كانت المادة تبدل بواسطة النار، فالنار فى إبادتها لا تجد شيئًا أعلى منها تأكله، وإذا كانت النار تبقى على بذور التطور فى المستقبل فإن بناءها سوف يحفظ ولكن إذا كانت تفنى فإن بذور الفناء فى المستقبل سوف تلازمها، وإنها لوقاحةُ وتدنيس مزدوج، ليس للفساد المتنبأ للعالم فحسب، وإنما لإيجاد مسلك مع إعادة الميلاد، كما لو أن الرب يبتهج فى حالة الفوضى والخمول»[1].

وكى يبين فيلون سبب هذا الرفض الذى جاء لاعتقاد دينى وهو عدم تشبيه الله بالمتفرج حين يباد العالم بالنار، فإنه أعطى توصيفًا لتكوين النار من ثلاثة أشكال أو مراحل، فالنار تمر بمرحلة أو حياة الفحم Life Coal، ثم الأستعار The Flame، وأخيرًا التوهج Fire ـ Light، ففى حياة الفحم تحوى النار مادة أرضية، والإستعار وهو ما يصعد فى الهواء نتيجة ما تأكله النار، اما التوهج وهو ما ينتج عن الأستعار ويعطى الإدراك البصرى للعين لرؤية الأشياء الحسية، يمثل الأستعار حياة متوسطة بين حياة الفحم والتوهج، فإذا قلنا أن العالم فى الاحتراق أحلهم ـ الماء، الهواء، التراب ـ سوف لا يكون هناك فحم، لأن الكميات الكبيرة للمادة الأرضية التى هى مواد فى النار محتوية بها وسوف تظل ماكثة فيها، والماء والهواء والتراب سوف يحل إلى النار الخالصة والبسيطة، وبالتالى سوف لا يكون هناك استعار، لأن الأستعار مرتبط بالوقود، وعدم وجود الأستعار والفحم معًا يؤدى إلى عدم وجود التوهج، وإن كان هذا هكذا فالعالم لا يباد عن طريق الاحتراق وهو غير قابل للفساد، وإن كانت إبادتها ضرورية هكذا، فإن أى عالم آخر لا يمكن أن يأتى إلى الوجود[2].

إذا كان تقسيم النار إلى ثلاثة مراحل ـ حيوات ـ إذا سقطت منهم مرحلة

(1) Philo: Eternity, chxvii, 85, p 245.

(2) Ibid: Chxvii, 88, p 49.

كان نذيرًا بعدم الوجود أو عدم قابليته للفساد، فهذا يمثل سببًا للرفض، ولكن ذلك ليس كافيًا للإنكار عند فيلون وإنما هناك أسباب يمكن أن نمضى فيها قدمًا كالآتى:

1 ـ عدم قبول الأزواج المتعارضة:

حيث إن الأزواج المتعارضة من المستحيل أن تجتمع فى عضوٍ واحد، فكيف يجتمع الأبيض والأسود، الصغير والكبير، الشاذ والسوى، أو ما شابه ذلك، فعندما يأخذ الاحتراق مكانه، فإن واحدًا من الأزواج المتعارضة سيوجد والآخر لا يوجد.

وهنا فيلون يكون منطقيًا فى عدم قبول هذه الأزواج بإقراره التقابل بالتضاد حيث إن الشيئيين المتقابلين بالتضاد لا يصفان شيئًا واحدًا معًا وقد يرتفعان من الشئ الواحد فى نفس الوقت، فالشئ إما أن يكون أبيض أو أسود، وهو ما عبر عنه الفلاسفة المسلمون فى قولهم: أن الشيئيين المتقابلين بالتضاد لا يجتمعان معًا وقد يرتفعان معًا.

وعندما تحل الأشياء فى النار عند فيلون كما نقد الرواقية سيبقى شيئًا منها مضئ أو باهت، وهذه الأشياء ـ المضئ والباهت ـ تنتج النار ولا يوجد شىء مضاد لها مثل الثلج، فكيف يتجاوز الأفضل، هنا تموج الفوضى الناتجة عن نظرية الاحتراق، فبدلًا من أن تتعايش الأزواج مع بعضها ويجمعها الترابط، فإنها تحمل الأبدية على فئة واحدة وتجعل الأخرى بلا وجود.

إذا كان العالم يفسد كما يقولون فإن فساده لا بد أن يكون بعلة أو بالرب، إلا أنه لا شىء يمكن أن يكون علةً للانحلال، ولا شىء يمكن أن يشمله الانحلال لأن ما يشمله أو يهيمن عليه بالتأكيد أضعف منه، ولذلك يسيطر عليه، أما كون الرب علة لهذا الإفساد فهذا يمثل أسوأ دناسة، لأنه يعمل على النظام والانسجام وليس الفوضى واللانظام واللانسجام[1].

(1) Ibid: chxx, 106, p 229.